دستويفسكى : حياته وأهم أعماله

بقلم الأستاذ فؤاد دوارة

إن الخوض فى سيرة كاتب روسيا الكبير « فيدور ميخائيلوڤيتش دستويڤسكى » أشبه ما يكون بالاستغراق فى قراءة إحدى رواياته الضخمة المليئة بأعنف المواقف المحتشدة بأغرب الشخصيات والأحداث . فهو ينتمى إلى أسرة ذات أصل عريق . وأقدم ما وصل إلينا عنها يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، حينما أقطع أحد الأمراء النبيل « إيڤانوڤتش إيرتيشافيتش » مساحة كبيرة من الأرض تضم عدة قرى ، من بينها قرية « دستويڤو » ، فانتسبت سلالة هذا الأمير إلى هذه القرية ، وأصبحت تدعى « دستويڤسكى » .

ومضت الأعوام بالأسرة وأفرادها ما بين هبوط وارتفاع ، فكان من بينهم الحكام والمحرمون ، ورجال الدين والصعاليك ، فإذا وصلنا إلى جد الأديب الكبير وجدناه كاهناً يحاول أن يورث ابنه مهنته ، ولكن هذا الابن ما إن يبلغ الخامسة عشرة حتى يهجر المنزل بمعاونة أمه ، ويرحل إلى موسكو ليدرس الطب ، ويتخرج طبيباً يعمل بالجيش ، ثم يعين فى عام ١٨٢١ طبيباً بمستشفى الفقراء بموسكو .

وفى ٣٠ أكتوبر من ذلك العام يرزق بولده الثانى فيسميه « فيدور » ، وكانت أسرة الطبيب تقطن فى مسكن ملحق بالمستشفى لا يفصله عنه سوى جدار فى الحديقة يتوسطه باب خشبى كان الأب يستعمله فى غدوه ورواحه ، وحينما كبر الطفل « فيدور » تعوّد أن يعبر هذا الباب ليتطلع فى ذهول إلى مظاهر البؤس والعذاب فى حديقة المستشفى ، فهنا طفل مبتور الساق ، وهناك شيخ هدّه السعال ، وغير بعيد منه

دستويڤسكى

امرأة شاحبة تحدّق فى الفراغ ذاهلة عن كل ما حولها . بؤس ومرض وعذاب ؛ كانت تلك أول ذكريات اختزنها عقل الكاتب فى طفولته المبكرة .

وضبطه أبوه ذات يوم وهو يتسلل عبر الجدار ، فضربه بقسوة لكيلا يعود إلى ذلك . ولم تكن تلك أول مرة يقسو فيها الأب على ولده ، فقد كان فظًّا سيئ الطباع أحال حياة أسرته إلى جحيم ببخله وكثرة شكوكه وهواجسه ، وما لبث أن أدمن الخمر ، وأخذ يصب سخطه ونقمته على كل من حوله ، وبالغ فى تعذيب فلاحى أرضه ، فثار عليه بعضهم وقتلوه قتلة بشعة .

ومع ذلك فقد كان ذلك الأب الفظُّ الشَّرِس

حريصاً على أن يجمع أبناءه كل ليلة ليتلو عليهم الصلوات المقدسة ، ويحذرهم مغبة الوقوع فى الرذائل ، وأصر على أن يحضر لهم كاهنا يشرف على تعليمهم ، وينشئهم تنشئة المؤمنين المتدينين ، ولعل ذلك يفسر سر تلك النزعة الدينية القوية التى غلبت على تفكير دستويفسكى ، ولم تخلُ منها رواية من رواياته .

وفى عام ١٨٣٧ أرسله أبوه إلى سانت بطرسبورج وهى العاصمة آنذاك ، والتحق هناك بمدرسة الهندسة العسكرية ، وقضى فيها خمس سنوات تخرج بعدها ضابطاً بسلاح المهندسين ، ولكن دراسته وعمله الجديد لم يكونا ليشبعا ميوله القوية نحو الأدب والتعبير الفنى ، فقد أقبل منذ صباه المبكر على أعمال الأدباء الكبار يلتهمها فى شغف واشتياق ، وكان شديد الإعجاب بهوجو وبلزاك وچورچ ساند من الأدباء الفرنسيين ، وببوشكين وجوجول من الأدباء الروسيين ، وحينما قتل بوشكين عام ١٨٣٧ وضع دستويفسكى شارة الحداد على صدر سترته شهوراً طويلة ، أما جوجول فقد أحبه دستويفسكى كثيراً ، وكانت أولى محاولاته فى الكتابة متأثرة به إلى حد بعيد ، وهى قصة « المزدوج » التى قيل عنها إنها مستوحاة من قصة « الأنف » لجوجول ، حتى لقد نقل الكاتب الناشئ عبارات كاملة منها . وحينما نضج « دستويفسكى » بعد ذلك وأصبح كاتباً مشهوراً قال عنه قولته المشهورة « لقد انحدرنا جميعاً من معطف جوجول » ، يشير إلى قصة « جوجول » المعروفة « المعطف » ، ويعنى أن جميع كتاب القصة الروسية قد تأثروا بأدب « جوجول » وتتلمذوا عليه ، فهو بمثابة الأب الروحى لكل من تلاه من أدباء روسيا الكبار .

وكذلك احتل بلزاك مكانة ممتازة فى نفس الأديب الشاب ، فترجم له عام ١٨٤٣ روايته « أوچينى جراندیه » ونشرت فى إحدى المجلات الروسية ، كما ترجم بعض الأقاصيص والأشعار عن الأدب الفرنسى وهو لا يزال فى مرحلة الطلب ، ولعله شرع فى التأليف كذلك . ولكن أقدم مؤلفاته التى نعرفها ترجع إلى عام ١٨٤١ ، وهما قصتا « مارى ستيوارت » و « بوريس جودنوف » ، وقد تأثر فى كتابتهما إلى حد بعيد ببوشكين وشيللر الذى قال عنه فى إحدى رسائله :

« لقد حفظت شيللر عن ظهر قلب ، وأصبح حديثى « شيللر » ، وكل أحلامى تدور حول « شيللر . . » .

● المساكين

ولم يستطع « دستويفسكى » أن يستمر طويلا فى وظيفته العسكرية ، فاستقال عام ١٨٤٤ لضعف صحته ، وكتب لشقيقه « ميشيل » يقول : « . . أقسم لك إنى لم أستطع الاستمرار فى الخدمة ، فالحياة تصبح ثقيلة إلى أبعد حد حينما يقضيها الإنسان فى التافه من الأمور . . »

وتفرغ دستويفسكى للقراءة والكتابة ، وكان لا يزال فى مرحلة المحاولات لا يدرى على وجه التحديد ماذا يكتب ؛ حتى إذا كان مارس عام ١٨٤٥ وجدناه يرسل خطاباً إلى أخيه يخبره فيه أنه أتم رواية فى حجم « أوچينى جراندیه » وأنه يعتبرها عملا جاداً طيباً ، وكانت تلك رواية « المساكين » .

وواجهته مشكلة النشر العويصة التى تواجه كل أديب ناشئ ، وتملّكه اليأس من انصراف المجلات والناشرين عن روايته ، حتى تقدم زميل له من أيام الدراسة يدعى جريجورفيتش ، وكان قد شق طريقه فى عالم الكتابة والنشر ، وتعرّف على كبار الكتاب ، فما إن قرأ له دستويفسكى روايته ، حتى أعجب بها وأخذها إلى الشاعر المعروف نكراسوف ، وقرآها معا ، وملكت الرواية على الشاعر كل نفسه ، فأصر على أن يذهب فى الليلة نفسها إلى منزل دستويفسكى ليهنئه بنجاحه الكبير .

وأخذ نكراسوف رواية المساكين ليعرضها بدوره

على بلينسكى وهو أعظم نقاد روسيا آنذاك ، فأعجب بها هو الآخر برغم قسوة أحكامه ، ووصفها بأنها « تفتح أبواب المجاهل فى حياة الشعب الروسى وطباعه بصورة لم يحلم بها أحد . . إنها المحاولة الأولى عندنا لكتابة قصة اجتماعية » .

وحينما أحضروا له دستويفسكى ليسمع رأيه قال له :

« . . ولكن هل تفهم ما كتبت أيها الفتى ؟ لقد كتبت قصتك بوحى من غريزتك الفنية ، ولكن هل عقلت أنت نفسك كل هذه الحقائق البشعة التى صورتها . . يبدو لى أنه من المستحيل أن يفهمها شاب صغير فى مثل سنك . فهاك مثلا ذلك الموظف الحكومى التعس الذى صورته ، لماذا ظل يكدح فى عمله كل تلك السنوات فى يأس واستماتة . لقد هبط مستواه إلى درجة لم يكن يستطيع معها حتى أن يعتبر نفسه سيء الحظ . . وبلغ به الذل حداً جعله يعتقد أن أقل نوع من الشكوى تفكير خطر . . وهذا الزر المنزوع من سترته ، وذلك الموقف البشع الذى قبل فيه يد صاحب الفخامة — بل أصحاب الفخامة كما كان يسميه — كل ذلك مخيف . . مخيف جدا . . إنها مأساة استطعت أن تنفذ إلى قلبها بلمسة واحدة من قلمك .

« إننا نحن النقاد والناشرين لا نستطيع إلا أن نتعمد ، ونحاول شرح فكرتنا بكلمات كثيرة ، أما أنت أيها الفنان ، فتستطيع أن تقدم الفكرة نفسها ، بسمة شخصية واحدة ، وبلمسة واحدة ، أو صورة واحدة ؛ تستطيع أن تقرب الفكرة وتوضحها حتى لنكاد نلمسها بأيدينا ، فيستطيع أقل القراء وعياً أن يدرك على الفور كل شيء . . وهذا هو سر الفن ، وتلك هى حقيقة الفن . . وهذه هى الخدمة التى يسديها الفنان للحقيقة . . فالحقيقة تتكشف أمامك أنت الفنان ، وتقدم نفسها هدية لك . . فيجب أن تعتز بموهبتك وتخلص لها . . ولسوف تصبح كاتباً عظيما »

ولقد وصف « دستويفسكى » ، بعد ذلك ، وقع هذه الكلمات فى نفسه فقال :

« . . لقد تركتهم وانتحيت بنفسى جانباً ، وأنا فى أشد حالات الانفعال ، ووقفت إلى جوار النافذة أحدق فى السماء المضيئة الصافية . . وأحسست بكل كيانى ، أننى أعيش لحظة بالغة الأهمية ، وأنى أمر بنقطة تحول خطيرة فى حياتى . . لقد انتهت مرحلة ، وبدأت مرحلة جديدة تماما . ولم يكن شيء من ذلك ليخطر ببالى وأنا فى أكثر أحلامى إغراقاً فى الخيال ، وسألت نفسى فى انفعال وخجل : هل أنا حقا عظيم هكذا ؟ . . . ينبغى أن أثبت لهؤلاء الرجال أننى جدير بثنائهم حقا . . ولم أستطع أن أنسى هذه اللحظات اللامعة بعد ذلك أبداً . لقد كانت أسعد لحظات حياتى كلها ، وحينما كنت أنفذ حكم الأشغال الشاقة بعد ذلك كانت ذكرى هذه اللحظات تبعث القوة فى روحى ، وتساعدنى على احتمال عذابى . . »

● « الإعدام »

وأسكر دستويفسكى هذا النجاح السريع ، فالتصق بندوة بلينسكى الأدبية ، وتوثقت علاقته بأفرادها ، وفتحت أمامه آفاقاً جديدة ، وسرعان ما أصبح مشهورا فى الأوساط الأدبية ، محاطا بالثناء والإعجاب من الجميع . فبدأ يستهتر بأولئك الذين قام نجاحه على أكتافهم ، وأخذ ينقد كتاباتهم وتصرفاتهم فى كثير من الجرأة والاندفاع ، وأغضبه أنهم كفوا عن الثناء عليه ، وفترت حماستهم له ، وقيل يوماً لبلينسكى إن دستويفسكى يعتبر نفسه عبقرياً ، فهز كتفيه وقال : « يا للشقاء . ! إن دستويفسكى موهوب حقا ، ولكنه لو ظل يعتبر نفسه عبقريا ولا يصنع شيئاً ، فإنه لن يتقدم خطوة واحدة » .

وكان من الطبيعى أن يعرض دستويفسكى عن بلينسكى وندوته الأدبية ، ويبحث لنفسه عن أصدقاء جدد يرضون ظمأه إلى الثناء والتقدير ، وأوقعه سوء الحظ على جماعة من الشبان الخياليين المتطرفين ، كانوا يمضون لياليهم فى مناقشات سياسية وأدبية حادة ، يرسمون خلالها طريق الإصلاح والثورة على الأوضاع الفاسدة .

وكان يتزعم تلك الجماعة شاب يعمل بوزارة الخارجية يدعى بتراشفسكى ، وما لبث البوليس السياسى أن ارتاب فى هذه الجماعة ، فأخذ يراقبها ، ودلت تحرياته على أن عدداً من طلاب الجامعة والمثقفين المتطرفين يجتمعون كل ليلة عند الشيوعى بتراشفسكى ويتناقشون فى مواضيع ثورية خطيرة ، فصدر الأمر بالقبض عليهم فى ٢٢ من أبريل سنة ١٨٤٩ ، واقتيدوا جميعاً إلى سجن قلعة بطرس وبولس حيث ظلوا تسعة أشهر كاملة فى سجن انفرادى قاس ، وحرم عليهم الكتابة أو الاتصال بأى شخص ، ولم يستطع بعضهم احتمال ذلك ، فأصيب بالجنون أو انهيار الأعصاب .

وفى الثانى والعشرين من ديسمبر أيقظوهم من نومهم فى الصباح الباكر ، وقادوهم إلى ميدان سيميونفسكى حيث تلى عليهم الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص ، واصطف الجنود واستعدوا لإطلاق النار واقتادوا ثلاثة منهم ، كان دستويفسكى أحدهم ، وربطوهم إلى الأعمدة ، وعصبوا أعينهم . وفى اللحظة الأخيرة وقبل أن ينطلق الرصاص ، أقبل ضابط مسرعاً على فرسه ، يحمل أمراً من القيصر نيقولا الأكبر بوقف تنفيذ الإعدام ، وتخفيف العقوبة إلى السجن مع الأشغال الشاقة .

وهكذا قدِّر لدستويفسكى وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ، أن يعانى هذه التجربة المريرة حتى آخر لحظاتها ، ويعيش إحساسات المحكوم عليه بالموت كاملة ، وقد تركت هذه التجربة أثراً عميقاً فى نفسه لم يمح من ذاكرته أبداً ، فتحدث فى مؤلفاته أكثر من مرة عن ذلك العذاب الهائل الذى يقاسيه المحكوم عليه بالإعدام .

ففى رواية « الأبله » يقول الأمير موشكين :

« تصور مثلا رجلا يعذب ، جسمه مغطى بالجراح . إن الألم الجسدى لن يلبث أن يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه تظل عذابه الوحيد حتى يموت ، ولكن أقسى عذاب وأعظمه ليس ذلك العذاب الناشئ من الجراح ، وإنما هو اليقين من أنك بعد ساعة ، ثم بعد عشر دقائق ، ثم بعد نصف دقيقة ، ثم بعد لحظة قصيرة واحدة ستفارق روحك جسدك ، وأنك لن تعود إنساناً حيا ، وأن كل ذلك أمر مؤكد تماما . إن هذا اليقين هو أقسى أنواع العذاب ، وليس هناك أقل تناسب بين جريمة القتل التى تكفر عنها وبين عقوبة الإعدام ، فالأخيرة أفظع بكثير من الأولى .

« فالرجل الذى يذبحه اللصوص ، أو يغتالونه ليلا فى الغابة ، أو على أى صورة من الصور . . هذا الرجل يظل حتى آخر لحظة من حياته محتفظاً بالأمل فى أن ينجو بنفسه . ولكم شهدنا أناساً كانت السكين فى أعناقهم ، ومع ذلك ظلوا يأملون ، ويعدون ويتوسلون . أما فى حالة الإعدام فهم يحرمونك تماماً من تلك البقية الباقية من الأمل التى تخفف وقع الموت على نفسك عشرات المرات ، فاليقين من أنك لن تفلت من حكم الإعدام هو ذاته العذاب الذى ليس بعده عذاب .

« إنك لو وضعت جنديا أمام فوهة مدفع أثناء معركة ، ثم انطلق المدفع ، فإن الجندى لن يفقد الأمل مع ذلك فى أنه ربما ينجو من الموت ، ولكن اقرأ على الجندى نفسه الحكم بالإعدام تراه إما أن يفقد عقله ، وإما أن ينخرط فى البكاء . . . من قال إن الطبيعة البشرية يمكن أن تحتمل كل ذلك دون أن تصاب بالجنون ؟ . . ولم كل هذه القسوة التى لا فائدة منها ؟

« ولقد يحدث أن يتلى على إنسان الحكم بإعدامه ، ويترك فريسة للرعب ، ثم يقال له بعد ذلك : « اذهب فقد صدر العفو عنك » . . آه ، إن مثل هذا الرجل يستطيع أن يروى مشاعره حقا . لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب . . لا . . لا يجوز أن نسمح بتعذيب كائن بشرى مثل هذا العذاب الأليم » .

ووجد بعد ذلك أن زوجة دستويفسكى الثانية قد وضعت خطوطاً تحت هذه السطور فى النسخة الخاصة بها ، وكتبت على هامشها : « لقد سمعت من زوجى وصف هذا الموقف ثلاث مرات وبهذه الكلمات نفسها تقريبا » .

أما أعجب الحقائق المتعلقة بتلك المأساة ، فهو ما عرف بعد ذلك من أن القيصر قام بنفسه بتأليف فصولها ، وأعد لهؤلاء الشبان الوطنيين هذا الدرس القاسى الذى لا ينسى ، فقد عثر فى ملفات البوليس على خطاب مختوم بالشمع الأحمر بتاريخ ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٤٩ يؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك .

● « فى بيت الموتى »

ووضعت السلاسل الثقيلة فى أقدام دستويفسكى ورفقائه ، واقتيدوا إلى سجنهم الجديد فى غياهب سيبريا ، وكان نصيب دستويفسكى ثمانية أعوام ، يقضى نصفها فى الأشغال الشاقة ، ويمضى نصفها الآخر فى الخدمة العسكرية .

وعاش دستويفسكى أربع سنوات مريرة وسط حثالة من المجرمين والأشرار ، تحت رقابة السجانين القساة ، ولم يكن يسمح له بالانفراد ساعة واحدة ، وقد آلمه ذلك أكثر مما آلمه أى لون آخر من ألوان العذاب الذى تعرض لها ، فإذا أردنا أن نكون فكرة عن أثر تلك الفترة القاسية من حياته ، فسنعثر على

بغيتنا فى روايته « رسائل من بيت الموتى » التى تجلت فيها عبقريته الملحمية ، ومقدرته الرائعة على تصوير الحياة تصويراً واقعياً موضوعياً .

وتتميز هذه الرواية عن غيرها من أعمال دستويفسكى بأنها تكاد تخلو من أى أثر لتلك النزعات الذاتية ، والتحيزات لأفكار بعينها مما سنلحظه بعد ذلك .

ولقد أتاحت له تجربته المريرة ، واتصاله الوثيق بعامة الناس فى السجن ، أن يقدم لنا صوراً إنسانية ممتازة لزملائه من السجناء .

ولا يملك قارئ هذه الصور إلا أن يحس أنه أمام نماذج لضحايا ذلك المجتمع الإقطاعى الفاسد الذى شاع فيه نظام رقيق الأرض .

وقد صور دستويفسكى هذه النماذج بطريقة تقنعنا أن معظم أولئك السجناء قد أدينوا بسبب أعمال وتصرفات مختلفة تتفق جميعاً فى أنها ليست إلا نوعا من الاعتراض على الاستبداد والظلم . . وأكد المؤلف فى أكثر من موضع من الرواية أن كثيرا من نزلاء السجن ارتكبوا جرائم القتل دفاعاً عن شرف عروس أو أخت أو ابنة أمام بطش طاغية فاسق ، وأن آخرين قتلوا أثناء مطاردة البوليس لهم باعتبارهم متشردين ومتعطلين ، ويقول دستويفسكى :

« لقد دافع هؤلاء الرجال عن حياتهم وحريتهم أحيانا وهم يكادون يموتون من الجوع ، وفى حالات أخرى ارتكب الرجال الجرائم عامدين لكى يزج بهم فى السجون فيجدوا فيها المهرب من حياة أقسى من السجن نفسه . . حياة تجرعوا فيها الذل حتى الثمالة ، وعرفوا الجوع والعمل الشاق المضنى من الصباح للمساء نظير دريهمات قليلة كى يثرى أصحاب المصانع على حساب كدهم . أما حياة السجن فأسهل ، وفيها كميات وفيرة من الخبز . . »

مثل هذه المقارنات بين الحياة فى السجن وخارجه ، وهذا الحشد من النماذج البشرية التى قدمها دستويفسكى فى عطف وفهم عميق للأسباب التى دفعتها للجريمة . . كل ذلك يجعل من هذه الرواية صورة تراجيدية بشعة لحياة الشعب الروسى فى ظل آل « رومانوف » ولا بد أن تنتهى بنا قراءتها إلى هذه النتيجة المؤسية التى انتهى إليها المؤلف نفسه حين قال :

« ما أكثر الشباب ، وما أكثر القوى التى كانت تبدد هباء داخل الجدران القاتمة ، ويجب أن نتذكر أن هؤلاء الناس لم يكونوا أفراداً عاديين ، بل لعلهم كانوا من أكثر عناصر شعبنا مواهب وشجاعة . . هذه القوى الجبارة تلاشت كلها بلا فائدة ، وبطريقة ظالمة غير طبيعية بحيث لم يعد بوسعنا أن نستردها . . فمن المسئول عن ذلك : نعم من المسئول »

ويدوى هذا السؤال الأخير كاتهام قاس ، إنه صوت شعب قوى موهوب تبدد قواه الهائلة بلا رحمة ، إنه صوت روسيا وهى تئن تحت نير الظلم والاستبداد .

خرج دستويفسكى من « بيت الموتى » فى ١٥ من فبراير سنة ١٨٥٤ ، ونقل إلى قرية « سيميبالاتنسك » حيث ألحق بالخدمة العسكرية بجيش سيبريا ، ليتم مدة عقوبته ، ولم يكن ذلك أمراً غريباً ، ففى عهد نيقولا الأول لم يكن ثمة فارق كبير بين حياة الجنود وحياة المجرمين فى السجون .

وخفف من قسوة الحياة عليه فى تلك القرية النائية وصول شاب أنيق يدعى فرانجل ليشغل وظيفة نائب الملك فى القرية ، وكان على صلة بميشيل شقيق دستويفسكى ، فتوثقت الصداقة بين الشابين برغم تفاوت مركزيهما الاجتماعى ، وأصبحا يمضيان معظم أوقاتهما معا .

● « الزوجة الأولى »

وكتب دستويفسكى فى تلك الفترة الجزء الأول من رسائل « بيت الموتى » . على ضوء مصباح غازى صغير ، وتعرف على السيدة مارى إيساييفا ، وشغف بها حبا ، ووثق صلته بزوجها السكير ، وكانت الملك السيدة على قدر كبير من الجمال والاستهتار ، فاستجابت لمغازلات دستويفسكى الحيية ، ولم تمانع فى أن تمضى

بعض أوقاتها معه دون أن تبادله حبًّا بحب ، وما لبثت أن سافرت مع زوجها إلى مقر عمله الجديد دون أن تأبه بعذاب العاشق الأديب الذى كتب لها يقول :

« آه ، لو تعلمين إلى أى حد تضنينى الوحدة هنا . . إن عذابى الآن ليذكرنى بالفترة التى قبضوا فيها على ، ودفنونى حيا فى زنزانة رطبة ضيقة . . لقد تعودت على رؤيتك ، وها أنذا الآن محروم منك .

« لقد عشت خمس سنوات خارج المجتمع ، وحيداً بلا صديق أسر له شكاتى ، ثم جئت أنت فعاملتنى كفرد من أسرتك ، ولكم آلمتك بطباعى الشاذة ، ولكنك أحببتنى مع ذلك . لقد أدركت ذلك وأحسسته ، فلست بلا قلب يا عزيزتى .

« وفى تلك اللحظة التى مددت فيها يدك إلى سجلت حادثاً هاماً فى تاريخ حياتى ، وفى هذه الساعة التى أكتب لك فيها وأعترف بحبى ، أشعر بحزن شديد يعتصر قلبى ، وها هى ذى دموعى تسيل غزيرة على خدى . . نعم ، أنا أبكى من أجلك ، وأرجو ألا تسخرى منى ، فأنا أعيش الآن وحيداً ولا أدرى إلى أين أذهب . . »

وبعد شهرين تلقى دستويفسكى رسالة من حبيبته تخبره فيها بوفاة زوجها ، فلم يستطع أن يمنع السعادة الآثمة من أن تغزو صدره لهذا الخبر ، فقد أصبحت الحبيبة حرة خالصة له ، وكتب إلى صديقه « فرانجل » — وكان قد نقل إلى « بطرسبرج » يرجوه أن يرسل لها بعض المال .

ويبدو أنه كان مسرفاً فى حسن ظنه ، إذ سرعان ما توثقت علاقة الأرملة الشابة بمدرس وسيم يدعى فروغونوف أسلمته زمام قلبها ، وما إن بلغ هذا الخبر دستويفسكى حتى رحل للقائها ، وظل يبكى ويتوسل حتى نجح فى إثارة إشفاقها عليه ، فانتزع من بين شفتيها وعداً بألا تتزوج غريمه الوسيم .

ولما عاد إلى « سميبا لاتنسيك » كتب إليها خطاباً مسهباً يشرح فيه موقفه ويستجديها لكيلا تهجره من جديد ، وجاءه الرد شتائم بذيئة من منافسه « فروغونوف » ، فوضح لدستويفسكى أنه فقد كل شىء ، وقبل الهزيمة ولم يجد بدًّا من أن يقبل القيام بدور البطل المضحى بسعادته فى سبيل سعادة المرأة التى يعبدها ، وإذا كان لم يستطع الفوز بها ، فإنه يستطيع على كل حال أن يعمل على إسعادها ، فبذل الوساطات لإلحاق ابنها « بول » بمدرسة داخلية ، وألح على أصدقائه الأثرياء كى يرسلوا لها معاونات مالية ، وكتب إلى صديقه « فرانجل » :

« . . كل ذلك من أجلها . . من أجلها وحدها لئلا يعضها البؤس بأنيابه ، وما دامت ستتزوجه ، فلا أقل من أن توفر لها بعض المال الضرورى ، وفورغونوف أصبح الآن أحب إلى من أخى ، فلا ضير على إذا طلبت له بعض المال . . »

وقد كانت تلك العاطفة النبيلة التى أظهرها دستويفسكى إثر هزيمته أحد العناصر الرئيسية فى روايته « مهانون ومستذلون » ، حيث نجد « ناتاشا » تدافع بحرارة عن عشيقها « ألیوشا » الذى غرر بها ، ثم هجرها إلى فتاة أخرى .

غير أن حادثاً هاماً طرأ على حياة دستويفسكى غير موقف عشيقته منه ، فقد رقى فى أكتوبر عام ١٨٥٦ إلى رتبة الملازم ، فزاد راتبه ، وتحسن مركزه الاجتماعى ، ويبدو أن فروغونوف كان قد بدأ يسوِّف فى موعد الزواج ويحاول التخلص منه ، فأقبلت ماريا على دستويفسكى بعد إعراض ، وتزوجا فى فبراير سنة ١٨٥٧ .

وكان من الممكن أن يسعد الزوجان لولا نوبات الصرع التى عادت تنتاب دستويفسكى خلال شهر العسل ، فكان يقع على الأرض مغشيًّا عليه يضرب الهواء بيديه ، وقد شحب لونه ، وامتلأ فمه بالزبد الأصفر ، والزوجة الشابة الحادة المزاج ، المغرمة بالمظاهر والترف تشهد ذلك، فتفزع ويصيبها النفور من زوجها .

● « الزمان »

ظل دستويفسكى يتقدم بالالتماسات والعرائض إلى القيصر ، وبوسط أصدقاءه لدى المسئولين حتى سمحوا له أخيراً بالعودة إلى بطرسبورج ، فعاد إليها فى نوفمبر

سنة ١٨٥٩ ، وعاد بذلك إلى الحياة الآدمية بعد نحو عشر سنوات قضاها فى عذاب وتشريد ، لكنه كان قد أصبح إنساناً آخر غير الذى كانه قبل تلك المحنة ، لقد فقد الإيمان فى طبيعة الإنسان نفسها ، ولم يجد ملاذاً إلا فى الدين ، فتوصل إلى نوع الحب المسيحى السلبى الذى قد يكون قوياً إلى أبعد حد ، وقد يبكى ، وقد يتجدث ، وقد يكفكف عبراته ، لكنه لا يمكن أن يصنع شيئاً أكثر من ذلك ، على حد وصف هيرزن .

وفى العاصمة وجد دستويفسكى نفسه وسط عالم جديد عليه ، فروسيا التى تركها فى حكم نيقولا الأكبر غيرها اليوم فى عهد اسكندر الثانى ، فقد استهل القيصر الجديد حكمه بإلغاء نظم رقيق الأرض ، وأعلن عن إصلاحات أخرى ما زالت فى دور الدراسة .

وأصبح المثقفون الروسيون ينقسمون بشكل عام إلى فريقين ، فريق متحمس لحضارة الغرب ، يدعو إلى أن تأخذ روسيا بأساليبها فى نواحى حياتها المختلفة ، وفريق آخر محافظ متعصب للنزعة الصقلبية ، ولكل ما هو روسى ، وكان دستويفسكى أميل بطبيعته إلى هذا الفريق الأخير .

وكان العهد قد تباعد بين دستويفسكى وبين القراء ، فلم يقبل الناشرون على شراء مؤلفاته ، ولم تعد المسألة بالنسبة إليه أن يواصل جهاده الأدبى من النقطة التى وصل إليها قبل سجنه ، بل أصبح من المحتم أن يبدأ الطريق من أوله ، ولم يجد وسيلة خيراً من أن ينشئ مع أخيه « ميشيل » صحيفة أسماها « فيرميا » أو « الزمان » .

وصدر العدد الأول فى يناير سنة ١٨٦٠ ، أى منذ حوالى مائة عام ، وأوضح دستويفسكى فى افتتاحيته أن المجلة لا تنتمى إلى جماعة المتحمسين للغرب ، ولا إلى دعاة النزعة الصقلبية وقد سبب له هـذا الاتجاه الذى اختاره للمجلة كثيراً من المتاعب ، إذ اتفق الفريقان المختلفان على محاربتها ، وإن لاقت مع ذلك رواجاً كبيراً .

وقد أرهقه العمل الصحفى المتواصل ، وتعددت نوبات الصرع التى كانت تنتابه ، وكان يفقد ذاكرته عقب بعض تلك النوبات ، فيظل قابعاً فى أحد الأركان شاحب الوجه كالحيوان الأخرس . . ومع ذلك فقد استطاع أن يتم روايته « رسائل من بيت الموتى » ، ويكتب كذلك أول رواياته الكبيرة بعد عودته من المنفى وهى : « مهانون ومستذلون » وأهم ما يلاحظ على هذه الرواية الجديدة أن آلام أبطالها ليست نابعة عن أسباب اجتماعية واضحة كسابقتيها ، ومع هذا ففيها عنصر اجتماعى وإنسانى عام ، قد يكون شاحباً ولكنه لا يمكن تجاهله ، ويتمثل فى مهاجمة الرواية للسادة الإقطاعيين الذين يسيطرون على حياة عامة الناس ويعملون على إهانتهم وإذلالهم . . ويمثل هذه الطبقة فى الرواية الأمير فالاكوفيسكى .

● « حب جديد »

وازداد إرهاق دستويفسكى بالعمل ، وتدهورت صحته ، فنصحه الأطباء بالسفر إلى أوروبا للراحة والاستشفاء ، ووصل إلى باريس فى يونيه سنة ١٨٦٢ ، وكتب إلى شقيقه يقول :

« إن باريس مدينة حزينة بشكل مخيف ، ولولا آثارها وأبنيتها القديمة لمت فيها من الضجر . . على أننى لم أطق المقام فيها أكثر من عشرة أيام ثم غادرتها إلى لندن » .

وقام دستويفسكى بعد ذلك بجولة كبيرة بين ربوع سويسرا وإيطاليا وألمانيا . وحينما عاد إلى سانت بطرسبورج كتب ذكرياته خلال هذه الرحلة ، ونشرها فى صحيفته « الزمان » ، ثم جمعها بعد ذلك فى كتاب أسماه : « ملاحظات الشتاء حول ذكريات الصيف » .

وقد وضحت فى هذا الكتـاب معارضـة

دستويفسكى لدعاة الغرب ، واستهانته بقيم الحضارة الأوروبية الحديثة ، فقد ملأه بالتهكم المرير والسخرية من أحوال البلاد التى زارها ، وانتهى من كل ذلك إلى القول بأن التقدم المادى قد أفسد دول أوروبا ، فأصبحت لا تؤمن بالله ولا بالمسيح ، فبدأت تختنق شيئاً فشيئاً تحت ضغط ثروتها الصناعية المتزايدة ، ورسالة روسيا فى رأيه هى إنقاذ أوروبا من وهدة الفوضى العقلية والأخلاقية التى تردت فيها ، وليس سوى الشعب الروسى بإيمانه العميق ، وروحه الجماعية ، من يستطيع النهوض بهذه المهمة العسيرة .

وعاود دستويفسكى نشاطه الصحفى والأدبى ، إلى أن نشر مقالا عن الثورة البولونية أثار ثائرة الحكومة ، فأمرت بإغلاق « الزمان » ، وأصيب دستويفسكى بصدمة عنيفة نتيجة لذلك ، وساءت صحته ، فأزمع القيام برحلة جديدة للترفيه عن نفسه ، واقترض مبلغاً كبيراً من المال ، لكنه قرر ألا يسافر هذه المرة وحده . . ولم يكن يستطيع أن يصطحب زوجته معه لاشتداد مرضها وإرهاق أعصابها ، فضلا عن أنه كان ينشد الراحة والترفيه عن نفسه ، ومن ثم فقد صحب صديقته الجديدة بولين سوسولوفا وكان قد تعرف بها فى ندوة من تلك الندوات التى كان يعقدها بين الحين والآخر للشباب المثقف من طلاب الجامعة وغيرهم ، ليقرأ لهم مختارات من مؤلفاته ويناقشها معهم . . وكانت بولين على قسط من الجمال ، كما كانت من أولئك الفتيات المتحمسات لحقوق المرأة ، المهتمات بمسائل السياسة والاجتماع ، ولقد جذبتها شهرة دستويفسكى واعتقدت أنها فى حاجة إلى توثيق علاقتها به ، لينظم لها تفكيرها المضطرب ، ويجعل لحياتها معنى كبيراً . . كانت تتمنى أن يسيطر عليها بعقله وروحه ، فإذا بها تجد نفسها مسيطرة عليه بجسدها وفتنة أنوثتها ، وإذا به ينهار عند قدميها ذليلا يستجديها أن تمنحه نفسها ، وبعد أن كانت مأخوذة بشهرته وعبقريته ، إذا بها تجد نفسها تحتقره وتكاد تكرهه ، حتى لقد كتبت فى مذكراتها تقول :

« كنت أستيقظ من نومى ، فأتذكر ما حدث مع دستويفسكى فى الصباح ، فيملأ الأسى نفسى ، وأجرى فى الحجرة منتحبة باكية » .

● « المقامر »

وقد علم دستويفسكى أنها سافرت إلى باريس ، فسرعان ما لحق بها هناك ، ليجد فى انتظاره دوره القديم فى الحب ، دور الصديق المواسى الذى لا يستحق من النساء أكثر من الإشفاق والرثاء ، فقد وقعت « بولين » فى حب شاب إسبانى أسمر ، ولكنه كان يعذبها ولا يبادلها حبها ، فقبلت تحت إلحاح دستويفسكى وتوسلاته أن تصحبه إلى إيطاليا ثم سويسرا ، وكانا يتوقفان فى كل مدينة فيها ناد للقمار ، ولا يكفُّ دستويفسكى عن اللعب حتى يخسر آخر مليم معه . ويرى بعض علماء النفس أن إسراف دستويفسكى فى المقامرة لم يكن فى حقيقته سوى محاولة للتنفيس عن رغباته الجنسية الملحة التى لم تجد الإشباع الكافى ، فقد كانت بولين تسرف فى تعذيبه ، ولا تستجيب لرغباته المشتعلة إلا بعد إلحاح شديد من جانبه ، فكانت ممارسة القمار فى نظره بديلا عن الحرمان الذى فرضته عليه عشيقته .

وقد تركت هذه العلاقة ، وتلك الفترة من حياته أثرا عميقا فى دستويفسكى ، فسجل جوانب منها فى روايته المشهورة « المقامر » وأسمى بطلتها بولين ، كما أضفى كثيراً من صفات بولين على بعض بطلاته الأخريات كـ « دنوتشكا » شقيقة « راسكولنيكوف » فى « الجريمة والعقاب » ، و « إجلاتيه » فى « الأبله » ، و « ليزا » فى « الشياطين » و « كاترين إيفانوفنا » فى « الإخوة كارامازوف » .

عاد دستويفسكى من رحلته الصاخبة ليجد صحة زوجته قد ساءت إلى أبعد حد ، وفى ١٥ من أبريل سنة ١٨٦٤ فاضت روحها ، وبعد ثلاثة أشهر مات شقيقه ميشيل ، فتضاعفت أحزانه وكتب فى إحدى رسائله يقول :

« لقد أصبحت وحيداً تماماً . . وأجد كل ما حولى غريباً . . لقد انتهت حياتى بانتهاء هذين العزيزين . . فهل سأستطيع أن أبدأ حياة جديدة ، وأنشئ علاقات أخرى مع أناس آخرين ؟ . . لا أعتقد . . فأنا لم أحب فى حياتى سواهما ، ومن المستحيل أن أحب أحداً بعدهما . . »

ومضى يحاول إغراق أحزانه فى العمل ، فأعاد إصدار صحيفته « الزمان » وأضنى نفسه بالعمل المتواصل فيها ، ولكن الديون ظلت تتراكم عليه برغم ذلك ، وظلت أحوال المجلة تسوء حتى توقفت نهائياً فى ٩ من يونيو سنة ١٨٦٦ ، واضطر إلى توقيع اتفاق مجحف مع ناشر جشع دفع له مبلغاً ضئيلا من المال مقابل رواية جديدة يقدمها له فى أول نوفمبر من العام نفسه ، فإذا لم يقدمها فى خلال شهر من هذا التاريخ ، فإنه يفقد جميع حقوقه فى كل مؤلفاته السابقة واللاحقة ، وتصبح كلها ملكا للناشر يستغلها كيف شاء .

وسافر دستويفسكى إلى الخارج ينشد السلوى من أحزانه ، ويداعبه أمل دفين فى لقاء صديقته بولين التى ما زال يحبها ويشتهيها رغم كل شىء ، وكان يريد فى الوقت نفسه أن يطفئ حنينه إلى القمار ، ويهيئ لنفسه جواً ملائماً للعمل فى رواياته الجديدة .

وفى « ويزبادن » خسر « دستويفسكى » كل ما معه من نقود ، وكتب إلى صديقه الأديب الكبير « تورجنيف » يقول : « إنى حزين يا تورجنيف ، وأشعر بالخجل لاضطرارى لإزعاجك ، ولكن ماذا أصنع وأنت الوحيد الذى أستطيع أن أتجه إليه الآن . فأنت أذكى من الآخرين كلهم ، وستستطيع أن تفهم موقفى ، وهذا ما دفعنى إلى الكتابة إليك . إننى أخاطبك كرجل يخاطب رجلا ، وأطلب منك أن ترسل إلى مائة روبل »

وأرسل إليه تورجنيف خمسين روبلا فقط راحت هى الأخرى فى دوامة القمار . . وساءت أحوال دستويفسكى ، وكثرت ديونه ، فرفض صاحب الفندق الذى نزل فيه تقديم الطعام إليه ، وكتب « دستويفسكى » إلى صديقته بولين يقول : « ها هى ثلاثة أيام تمر دون أن أتناول شيئاً غير الشاى صباحاً ومساء . وليس لدى ما أشبع به جوعى . . إنهم لا ينظفون ثيابى ، وإذا ناديتهم لا يحضرون . . وها هم يعاملوننى باحتقار لا يوصف . . ولكن أكثر ما يؤلمنى أنهم يرفضون إعطائى شمعة أكتب على ضوئها . . »

● « الجريمة والعقاب »

وفى هذه الظروف القاسية كتب دستويفسكى الأجزاء الأولى من روايته « الجريمة والعقاب » التى تعتبر من أروع الأعمال الأدبية فى تاريخ الأدب العالمى ، وتتميز بأمانتها فى تصوير الأوضاع الظالمة التى تسيطر على المجتمعات الرأسمالية الفاسدة ، وتدفع الناس الذين يحيون فيها إلى اقتراف الجرائم ، والتردى فى حمأة الرذائل . . وقد عبر « دستويفسكى » فيها عن إحساسه العميق بآلام المعذبين والمضطهدين ، فأجرى أحداثها بين الأزقة القذرة ، والمساكن المتهالكة التى يعيش فيها الفقراء . . ففى كل مكان تجد البؤس والحرمان ، وتشم رائحة العذاب والعجز .

و « راسكولينكوف » بطل الرواية يعانى الأمرين بسبب فقره ، ويتحول شبابه الغض إلى مأساة فاجعة لحاجته إلى مبلغ ضئيل من المال يبدأ به حياته ، وعلى خطوات منه تعيش مرابية عجوز تكنز الأموال الطائلة ولا تستفيد منها بشىء ، فيقتل الشاب المرأة العجوز ويستولى على أموالها ولكن تأنيب الضمير ، وتفكيره المستمر فى جريمته يعذبانه ويضطرانه إلى الاعتراف للبوليس بجريمته لينال العقوبة التى يستحقها ، ويحصل معها على الراحة النفسية التى افتقدها . . ويصدر عليه الحكم بالسجن المؤبد فى سيبريا ، فيذهب وقد حلت السعادة فى نفسه محل الألم ، والسكينة مكان الاضطراب والألم .

ويرى البعض فى « الجريمة والعقاب » تعبيراً عن نزعة « دستويفسكى » الدينية ، وإيمانه بأن على الإنسان أن يأثم ، وينال عقابه وعذابه كى تتطهر روحه وتخلص من أدرانها . . والمضمون النهائى الذى تخرج به من قراءة هذه الرواية يمكن تلخيصه فى أن المجتمع الروسى كما صوره الكاتب ، مجتمع لا يصلح للحياة ، فتخطيط الشخصيات ، واتجاهات المواقف والأحداث ،

بل كل سطر فى الرواية ينتهى بنا إلى هذه النتيجة ، وإلى الإيمان بصدق هذه العبارة التى قالها دستويفسكى ذات يوم :

« ما من أحد منا إلا وهو مسئول أمام الناس عن كل ما يقترفه الناس ويعانونه » .

وقد نشرت « الجريمة والعقاب » فى حلقات مسلسلة بمجلة « رسول روسيا » واستقبلت بترحيب كبير ، وارتفعت باسم كاتبها إلى قمة المجد الأدبى ، حتى أصبح قريناً لأسماء تولستوى و تورجنيف ، ولكن هذا النجاح لم يخفف من حدة أزماته المالية . . واقترب أول نوفمبر الذى يتحتم عليه أن يقدم فيه رواية جديدة للناشر الجشع . . ولم يكن قد خط فيها سطراً واحداً برغم أنه لم يبق على موعد تقديمها إلا أقل من الشهر .

ونصحه أحد أصدقائه بأن يستعين بكاتبة اختزال ليوفر وقت الكتابة ، وهكذا دخلت « آنا جريجور يفنا » حياته ، وبدأ يملى عليها روايته « المقامر » ، وأنس دستويفسكى إلى المختزلة الشابة ، فكان يملى عليها فى مزاج معتدل ومرح واضح ، وكثيراً ما توقف عن الإملاء ليروى لها بعض ذكرياته الطريفة ، أو يسألها عن بعض شئونها .

وتقدم العمل فى الرواية بسرعة كبيرة ، فأتمها فى خمسة وعشرين يوما ، وفى التاريخ المحدد سلمها إلى الناشر . . وآمله أن صلته بآنا ستنقطع بانتهاء الرواية ، إذ كان قلبه قد تعلق بها ، فعرض عليها أن تعاونه فى كتابة رواية جديدة فرحبت ، وتردد دستويفسكى كثيراً قبل أن يصارحها بحبه وبرغبته فى الزواج منها ، فقد كانت شابة نضرة فى العشرين من عمرها ، أما هو فكان فى منتصف الحلقة الخامسة كئيب الوجه قد هدّه المرض والأزمات المالية ، لكنه ما إن بدأ يشير من بعيد إلى مشاعره نحوها ، حتى أقبلت آنا عليه وشجعته وصارحته هى الأخرى بحبها ، فعقد قرانه عليها فى ١٥ من فبراير سنة ١٨٦٧ .

وبذلت الزوجة الشابة كل ما فى وسعها كى تدخل السعادة على حياة الأديب الكبير ، وتساعده على العمل فى هدوء واطمئنان ، ولكن أهله حاصروهما بخصوماتهم ومتاعبهم ، فانتكست صحة دستويفسكى وعاودته نوبات الصرع من جديد ، وأصبح من الضرورى أن يسافر إلى الخارج للعلاج والاستشفاء .

وفى درسدن استيقظت فيه روح المقامرة من جديد ، فترك زوجته وحيدة ، وسافر إلى « هامبورج » ليقامر فى نواديها الكبيرة . . وفى اليوم التالى كان قد خسر كل أمواله كالعادة ، ورهنت زوجته أقراطها وبعض ملابسها ، وأرسلت إليه بثمنها ليلقى به فى أتون العجلة الدائرة ، وظل يستجدى أصدقاءه ومعارفه ، ويخسر كل ما يصل إلى يديه وهو كالمحموم لا يدرى ماذا يصنع ، ولا يستطيع كبح جماح هذه الشهوة الملحّة للمقامرة ، وكتب فى تلك الفترة رسالة إلى صديق له تعتبر من أروع ما كتبه الأدباء على مر العصور فى تصوير بؤسهم :

« . . فقط لو استطعت يا صديقى أن تعرف كيف نعيش ؟ إن زوجتى تقوم برعاية الطفل . . وأنا معدم تماما . فكيف بالله عليك أستطيع أن أكتب وأنا فى حالة جوع مستمر ، حتى لقد اضطررت إلى رهن سروالى . . الجوع والشيطان هما رفيقاى الدائمان . . أما زوجتى فهى ترعى رضيعها ، ثم تضطر إلى الخروج لترهن معطفها الوحيد . . ولو أمكنك أن تدرك حقيقة ما أعانيه لعرفت أنه من المستحيل أن أستطيع الكتابة فى مثل هذه الظروف » .

● « الأبله »

ووافق رئيس تحرير مجلة « رسول روسيا » على أن يرسل إلى « دستويفسكى » مائة روبل كل شهر نظير رواية يكتبها للمجلة ، فانهمك دستويفسكى فى العمل ، وفى أول سبتمبر سنة ١٨٦٨ غادر الزوجان سويسرا إلى إيطاليا ، وأقاما فى « فلورنسا » حيث انتهى « دستويفسكى » من رواية « الأبله » ، وكان يرسل أجزاءها أولا بأول لتنشر تباعاً فى « رسول روسيا » .

وتعالج « الأبله » مشكلة الصراع الخالد بين العقل والعاطفة. فبطلها الأمير موشكين شاب ساذج نقى الفطرة لم يحصل إلا

على قدر ضئيل من التعليم ، ومع ذلك فهو أكثر حكمة من جميع من يفوقونه فى الثروة والتعليم والنفوذ .. إن موشكين أو الأبله لا يجد أى صعوبة فى حل أعقد المشكلات التى تعترض الناس فى علاقاتهم المتشابكة ، فى حين يقف أولئك الذين يفوقونه فى كل شئ عاجزين أمامها ، وما ذلك إلا لأنه برىء من الأنانية التى تسيطر عليهم وتوجه كل تصرفاتهم .

إن الأبله شاب وديع خجول ، وصريح إلى أبعد حدود الصراحة ، إنه إنسان كامل الأخلاق على حد تعبير دستويفسكى وهو ليس بالأبله إلا لأنه مختلف عن بقية الناس الذين يكذبون ويخادعون ، ويقترفون كل الآثام ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم حكماء . . ومن الطبيعى ألا يستطيع مثل هذا الشاب المثالى أن يتفاهم معهم ، ومن ثم فهم لا يرضون عنه ولا عن تصرفاته الحكيمة التى تبدو لهم حمقاء ، ويعتبرونه من أجلها أبله ، والحقيقة أنهم هم البلهاء ولكن لا يشعرون ! . .

ولقد قارن دستويفسكى بين شخصية الأمير موشكين وبين شخصية دون كيشوت الخالدة ، وفسر جمال الشخصيتين الفائق بأنه ليس إلا تجسيداً للجمال المثالى الذى لا يستشعر صاحبه قدر نفسه ، ومن ثم يظل محتفظاً بتواضعه وسماحة نفسه .

● « الزوج الخالد »

ولم تلق « الأبله » ما تستحقه من نجاح ، فشرع دستويفسكى على الفور فى كتابة رواية جديدة ، أتمها فى ثلاثة أشهر وأسماها « الزوج الخالد » وتدور حول امرأة لعوب تركت بعد وفاتها مجموعة من الرسائل الغرامية كشفت لزوجها عن علاقاتها الآثمة بعدد من العشاق ، وتصور الرواية العلاقة بين هذا الزوج وبين أحد عشاق زوجته الذى يرجح أنه الأب الحقيقى للابن الأخير الذى أنجبته الزوجة قبل وفاتها . وتكاد الرواية تخلو من تلك المواقف العنيفة ، ومن ذلك التحليل النفسى العميق الذى نجده فى معظم روايات دستويفسكى ، بل تغلب عليها المواقف الهزلية وروح الدعابة . .

وفكر دستويفسكى بعد ذلك فى كتابة رواية كبيرة بعنوان « قصة خاطئ كبير » ، ولكنه لم يستطع كتابتها وهو بعيـــد عن روسيا ، وكتب يقول :

« لقد عشت فكرة هذه الرواية ، وأصبحت أتوق إلى كتابتها ، ولكنى أجدنى عاجزاً عن البدء فى كتابتها لأنى أحتاج إلى أن أقضى فترة داخل دير قديم من أديرة روسيا » .

لذلك فقد كتب بدلا منها روايته « المأخوذ » وهاجم فيها العدميين وبعض الثوريين من أنصار الحضارة الغربية ، وقد استوحى فكرة الرواية من جريمة قتل ارتكبها طالب جامعى من معتنقى هذه الأفكار الجديدة ، واستعان فى كتابتها بالحقائق التى نشرتها الصحف حول هذه الجريمة .

وأرهقه ذلك العمل المتواصل ، وساءت صحته ، وتقاربت نوبات الصرع ، فترك زوجته ليقوم برحلة إلى ويزبادن وهامبورج ليرفّه عن نفسه ، ويرتاد نوادى القمار فيهما .

وكالعادة أضاع دستويفسكى كل أمواله على المائدة الخضراء ، وانتابته مرة نوبة صرع عنيفة كادت تقضى عليه ، إذ وقع على الأرض مغشيًّا عليه وشجّ رأسه . وفى ليلة تالية استيقظ ضميره من خدره الطويل بعد أن خسر كل ما معه ، فضاق بنفسه وبتصرفاته الرعناء . وظل يسير فى شوارع المدينة وأزقتها يبحث كالمجنون عن كنيسة يجد فيها أمن روحه ، وكتب إلى زوجته يقول :

« أرجو ألا تظنى بى الظنون وأنت تقرأين هذه الرسالة . فقد طرأ على تحول عظيم ، وانتهى كل شئ الآن ، ولن أقامر بعد اليوم . . لقد كانت يداى مكبلتين بقيود القمار ، وقد تحررتا الآن ، ولن أفكر بعد اليوم فى شئ غير عملى . لن أحلم بالقمار ليالى بطولها كما كنت أفعل من قبل ، ولا شك أن ذلك سيساعدنى على زيادة إتقان عملى ، وإنجازه بسرعة أكبر . . » .

ونفّذ دستويفسكى كل كلمة كتبها فى هذا الخطاب التاريخى ، فلم يعد إلى مائدة القمار بعد ذلك أبداً ، ولكن مشكلاته لم تنته بذلك ، فحينما عاد إلى روسيا فى يوليو سنة ١٨٧١ ، ظل الدائنون يطاردونه ، ويستغلون سذاجته وجهله بالمعاملات المالية ، حتى أشقوه وحوّلوا حياته إلى جحيم .

وأثناء ذلك كشفت زوجته آنا جريجوريفنا عن مواهب عملية ممتازة ، فحملت عنه عبء استقبال

الدائنين والمرابين ، وتولت كل أعماله المالية ، والاتفاقات مع الناشرين ، وقررت فى النهاية أن تتولى بنفسها نشر مؤلفات زوجها ، فكانت تشترى الورق ، وتتفق مع المطابع ، وتنقّح المسودات ، وتراجع التجارب ، وتتفق مع أصحاب المكتبات ، ونجحت فى كل ذلك نجاحاً أذهل زوجها وكل المحيطين بهما .

وفى عام ١٨٧٢ أسند الأمير مسشرسكى إلى دستويفسكى رياسة تحرير جريدة « المواطن » ، فشغله عمله الصحفى الجديد عن مواصلة إنتاجه الأدبى ، وبخاصة إنه كان يشرف على الجريدة إشرافاً تامّاً ، ويكتب فيها مقالات طويلة منتظمة تحت عنوان « يوميات كاتب » .

وقد استقلت هذه اليوميات بعد ذلك ، وأصبحت تصدر كمجلة شهرية يسجل فيها الكاتب آراءه فى الأحداث السياسية والاجتماعية ، ويروى فيها ذكرياته وخواطره حول كل ما يعن له من مواضيع ، وقد لاقت هذه اليوميات نجاحاً كبيراً لدى القراء .

وزاره صديقه القديم نكراسوف متناسياً ما قام بينهما من خصومات ، وعرض على « دستويفسكى » أن يكتب له رواية جديدة لينشرها فى تقويمه الجديد ، وتم الاتفاق بينهما بسرعة ، وكتب « دستويفسكى » ، رواية « المراهق » ، وضمنها أشتاتاً من ملاحظاته التى سجّلها فى كراساته العديدة ، وجمع فيها عشر قصص فى قصة واحدة ، وقد استقبلها النقاد بما تستحقه من ترحيب ، وقرأها نكراسوف فى جلسة واحدة وكتب إلى دستويفسكى يقول :

« أى رقة تلك التى تمتاز بها ؟ . . إنها رقة نادرة حقا وليس لها مثيل عند أى كاتب آخر وبخاصة بالنسبة لمن هم فى مثل سنك » .

● « الإخوة كارامازوف »

وفى سنة ١٨٧٨ تلقى دستويفسكى خطاباً من أكاديمية العلوم الروسية يعلنه باختياره عضواً مراسلا بها.

وكان « دستويفسكى » قد أعلن فى عدد ديسمبر ١٨٧٧ من مجلة « يوميات كاتب » أن المجلة ستنقطع عن الصدور بصفة مؤقتة نظراً لانشغاله فى عمل فنى جديد ينوى أن يعالج فيه تلك المشكلة التى شغلته طوال حياته ، وهى مشكلة وجود الله . ولم يكن هذا العمل الفنى سوى روايته الكبرى والأخيرة « الإخوة كارامازوف » . وقد ظل عدة سنوات يفكر فى موضوع هذه الرواية ، ويجمع المواد والمعلومات اللازمة لكتابة هذا العمل الكبير الذى استغرق منه ثلاث سنوات . . وما « الاخوة كارامازوف » على ضخامتها إلا الجزء الأول من هذا العمل الكبير الذى كان ينوى أن يتمه تحت عنوان « قصة خاطئ كبير » ولكن العمر لم يمهله ليحقق ما أراد .

وفى سبيل الاستعداد لهذا العمل ، زار دستويفسكى ضيعة أبيه ، وتحرى عن ظروف مصرعه على أيدى عدد من الفلاحين . . واستعاد ذكريات طفولته وصباه فى هذه الأماكن ، وقد صور شخصية الأب فى « الإخوة كارامازوف » على نحو قريب من شخصية أبيه ، وأنهى حياته قتيلا مثله .

وقد توطدت علاقة دستويفسكى فى هذه السنوات بأستاذ فلسفة شاب يدعى فلاديمير سولوفييف ، ودارت بينهما أحاديث ومناقشات فى الدين والفلسفة كان لها أثرها الواضح فى توجيه الرواية ، وقد أضفى دستويفسكى على شخصية « إيڤان » الأخ الأوسط فى الرواية كثيراً من سمات صديقه « سولوفييف » ، وأنطقه بالكثير من آرائه .

وتعتبر هذه الشخصية إحدى قمم أدب دستويفسكى ، ودليلا على عبقريته فى رسم الشخصيات الإنسانية ، وتصوير الصراعات النفسية الداخلية فى براعة ودقة فائقتين . . فقد جعل إيڤان كاتبا صحفيا ، ومفكراً ملحداً له آراؤه الخاصة فى الوجود والأخلاق . ويرى بعض النقاد أن هذه الشخصية والصراع الفكرى والنفسى الذى يلف حياتها تمثل الخيط الرئيسى فى الرواية . .

وزار دستويفسكى مع صديقه الفيلسوف سولوفييف أحد الأديرة الروسية القديمة فى إقليم تولا ، ومكثا هناك يومين فى ضيافة قسيس كبير ، اتخذه دستويفسكى نموذجاً لشخصية « الأب زوسيما » فى الرواية ، كما سجّل فيها كثيراً من الأحاديث والمناقشات التى دارت بينهم حول الإيمان والإلحاد ، والخير والشر ، والفضيلة والرذيلة .

● « الرواية التراجيدية »

وبلغ دستويفسكى قمة مجده الأدبى فى الاحتفالات التى أقيمت فى موسكو عام ١٨٨٠ بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال بوشكين ، وقد ألقى خطاباً طويلا رائعاً جاء فيه :

« . . إنى لأتساءل من هو بوشكين ؟ وما سر عظمته ؟ . وفى رأيى أنه بمقدرته الفائقة على اكتساب عبقرية الشعوب الأخرى قد استطاع أن يصبح التجسيد الحقيقى لروحنا القومية . . بوشكين ؟ . إنه روسيا بكل ما فيها من صفات عالمية ، فالإنسان الروسى الحقيقى أوروبى ، بل عالمى . . ولكى يكون الإنسان روسياً حقيقياً . . روسياً كاملا ، فهذا معناه ، واحفظوا جيداً ما أقول ، هذا معناه أن يصبح أخا لجميع البشر ، وأن يصبح واحداً من دعاة الإنسانية الشاملة . . » .

واعتقد دستويفسكى أنه قد وفق فى هذا الخطاب بين النزعتين الفكريتين المتعارضتين اللتين تقسمتا المثقفين الروسيين ؛ نزعة التعصب للصقالبة ، ونزعة الإيمان بكل ما هو غربى . .

وقد استقبل خطابه بحماسة رائعة لم يستقبل بها أديب روسى من قبل ، واعتقد هو أن معظم هذه الحماسة ، إنما يرجع إلى النجاح الكبير الذى حققته « الإخوة كارامازوف »

وبعد بضعة أسابيع ، وحين الكاتب الكبير منهمك فى عمله ، إذ سقط القلم من يده ، وتدحرج تحت خزانة صغيرة بجواره ، فقام وحاول تحريكها . وبينما هو منحن إذا بسائل دافئ يتدفق من فمه ، ووضع دستويفسكى يده على فمه ، ثم نظر فيها فإذا بها ملطخة بدم أحمر قان . . لقد انفجر شريان فى رئته ، واستمر النزيف حتى قضى عليه فى السابع والعشرين من يناير عام ١٨٨١ .

مات الكاتب الكبير الذى رأى مكسيم جوركى أنه الأديب الوحيد الذى تجوز مقارنته بشكسبير ، وأيّده فى ذلك سيجموند فرويد مبتدع مدرسة التحليل النفسى فقال : « إن مكان دستويفسكى فى سلم الأدب العالمى يلى شكسبير مباشرة ، وفى رأيى أن « الإخوة كارامازوف » هى أروع رواية فى تاريخ الكتابة » .

والواقع أن مقارنة دستويفسكى بشكسبير ليست نوعاً من المغالاة ، فشخصياته الروائية تشبه شخصيات شكسبير إلى حد بعيد ، من حيث إنها ليست مستمدة من واقع الحياة المنطقية فحسب ، إنما كثيراً ما تكون أكبر من الحياة ذاتها بما فيها من سمات نفسية دقيقة ، وصراعات فكرية عنيفة . ولقد ألف الشاعر الرمزى الروسى والناقد الأدبى فيتشسلاف إيفانوف كتاباً عن أدب دستويفسكى اهتم فيه بدراسة مشكلة الحرية والحياة التراجيدية فى رواياته ، وذهب إلى القول بأن فلسفة دستويفسكى وقدرته الفنية قد فرضتا عليه خلق شكل فنى جديد اجتمعت فيه خصائص كل من الرواية الواقعية الحديثة ، والتراجيديا القديمة ، وأسمى إيفانوف هذا الشكل الأدبى الجديد « الرواية التراجيدية » ، وقرر أن دستويفسكى استطاع أن يعالج داخل هذا الشكل الفنى الجديد مشكلات العالمين المتباينين اللذين ملكا عليه كل تفكيره ، وهما عالم القلب الإنسانى الضعيف ، ويكشف عما يكتنفه من التدهور والانحلال ، كما صور فى الوقت نفسه عالم الروح الإنسانية السامية الساعية أبدا للتطهر من أدرانها وآثامها . .

وسواء أصحّ هذا الرأى أم لم يصح ، فالذى لاشك فيه أن دستويفسكى يقف فى تاريخ الأدب العالمى كقمة ممتازة تدمى دونها أقدام الساعين .

ولقد وفق ذلك الناقد الروسى الكبير الذى قال :

« إن دستويفسكى هو أعمق من حلل النفس البشرية فى أزماتها المختلفة ، وإن الصور الرهيبة التى قدمها للصراع النفسى الداخلى لتشهد بأنه حضر عملية خلق الإنسان . . » ! !